٤ ـ الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيّب بنُ رافعٍ : ومدّ الامامُ عينَه وقد رُفعَ له شخصٌ من المجلس ؛ ثم جَلّى بنظره كأنما يتطلّع إلى عجيبةٍ كالحق إذا بَطَل ، والصدق إذا كَذَب ؛ ثم ردّ بصرَه عليّ كأنه يُعجّبني من عجبه ؛ ثم سَجَا طرْفُه كأنما أنكرَ رأيَ عينيه فهو يلتمس رأيَ قلبه . وتبيّنتُ في وجهه انقباضاً خُيّل إليّ أن الشيطان جاء بهذا الرجل يُفحِمُه به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمّسُ في دينه ليرجعَ بعد ذلك أصلاً لاغنى عنه في إنشاء قصة كُفر !

هذا هو ضيفُنا (أبو محمد البَصْري) يَتَخوّضُ الناسَ ليجيءَ فيحدّثَنا حديثَه في قتْل نفسه والأثم به ؛ فلو قيل لي : إن قوسَ السماء بأحمرِه وأصفرِه وأزرقِه وأخضرِه ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً — لكان هذا كهذا في تعاظُمه وإنكاره والعجبِ منه ؛ فأبو محمد من الرجالِ الحُمْس (1) الذين لو كَفَر أحدُهم ثم قيل «إنه كفر» ، لقَصّر اللفظُ أن يبلغَ الحقيقةَ أو يصفَ شُنْعتَها ، كما يقصّر لفظُ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماء ولا تناله يدُ الله ! إن في لفظ الكفر مع ذلك ، وفي لفظ الجنون مع هذا — شيئاً من نفاق العقل وتأدّبِه في أداء المعنى الأخرقِ الذي لا يُشْبِهُه جنونٌ ولا كفر

ونعوذُ بالله من خذلانه ؛ فلقد يكون الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِه وإيغاله في الدين — كالذي يصنع حبلاً يَفتله فتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق ، ليكونَ أشدَّ له وأقوى ، ثم يجاذبه الشيطانُ حبلَه ، فاذا هو كان في الوَهن مثلَ العنكبوت اتخذتْ بيتاً في سقف حدّاد ؛ فرأته يَصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حلْقةً في حلقة ، فذهبتْ تحكيه وتُرسلُ من لُعابها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة . . . !

إن مع كل مؤمن شيطانَه يتربّصُ به ، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كل ساعة كالذي يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً محترسٌ متهيءٌ متجدّد الحواسّ مُرْهَفُها يستقبل بها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة ؛ ومن هذا حكمةُ أن يؤذّن المؤذّن وأن تُقام الصلاةُ مراراً في اليوم ، فكلما بدأ وقتٌ قال المؤمن : الآن أبدأ إيماني أطهرَ ما كان وأقوى

***

وقال الامام : هِيهِ يا أبا محمد ! فقال البصريّ وقد رأى الكراهة في وجه الامام : لا يُفزِعنّك أيها الشيخ ؛ فان الله تعالى قد يجعل ما يحبّه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجريَ على ألفاظنا ؛ وقد نُسمي النازلة تنزل بنا خساراً وهي ربح ، أو نقولُ مصيبةٌ جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تيسرتْ لتبديل الفكر . إنما لغةُ القدَر في شيء هي حقيقةُ هذا الشيء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيّن من حادثةٍ لا تصيب امرأً في نفسه إلا لتقع بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها ، فتكونَ أعمالُ الطبيعة المادّيَة أسباباً في أعمال العقل المنتصر

(1) أي المتحسين في دينهم

مغرياً في الفضاء ، فتاناً في الحدائق ،
بهيجاً في الألوان ، رشيقاً في الشقائق ،
طروباً في قلب الجذلان !
هوذا الربيع ، هوذا الربيع !
كئيباً في قلب المظلوم ، جريحاً في قلب المحروم ؛
شاملاً بعطفٍ نصفه قسوة ،
حاضناً برفق نصفه عنف ،
موحياً أملاً نصفه يأس ،
مذكياً خصباً نصفه محل ،
حافزاً شباباً نصفه هرم ،
مجدّداً حياةً نصفها ردًى !
الربيع الربيع ، لمن يكون الربيع ؟
الربيع الجديد ، هوذا الربيع !
الربيع العابر ، هوذا الربيع !

« مي »

وكثير من هذا البلاء الذى يقضى على الانسان، لايكون إلا وسائلَ من القدَر يُردّ بها الانسان إلى عالَم فكره الخاصّ به ؛ فان هذه الدنيا عالَمٌ واحد لكل مَن فيها ، ولكن دائرة الفكر والنفس هى لصاحبها عالَمُه وحده . والسعيد من قرّ فى عاله هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك المطاع فى مملكته ، نافذَ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقىُّ من لايزال ضائعاً بين عوالم الناس ، ينظر الى هذا الغنىّ ، وإلى ذاك المجدود ، وإلى ذلك الموفق ؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذ كلُّ شىء يصبح أجنبياً عن الانسان مادام هو أجنبياً عن نفسه

لقد كنتُ ضالاً عن نفسى وعالَمها ، فكنت فى هذه الدنيا أستشعر شعورَ اللص ، أشياؤه هى أشياء الناس جميعاً ؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعينيَ شاعرٍ متحبّبٍ كلِف ، وهى تنظر إليه بعينيَ مُقاتِلٍ متربّصٍ حَذِر

كنتُ والله إن ضقتُ بالناس أو وسِعتهم — رأيتُ فى ذلك معنى من ضيق اللص وسَعته ؛ هو على أىّ حالَيه لاينظر فى أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلّل فى خشيةٍ وحذر !

وكنتُ نزِقاً حديدَ الطبع سريعَ البادرة ؛ ومَن فقدَ عالَم نفسه ، وكان فى مَثَلِ اللص الذى ذكرتُ — فان هذه الطباع تكون هى أسلحتَه يَدْفعُ بها أو يَعتدى . وماقطُّ تمكّن إنسانٌ من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرّفُه — إلا كان راضياً عن كل شىء ، إذ يتصل من كل شىء بجهته السامية لاغيرها ، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولاهؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها . وقد يكونُ عدوُّك فى بعض الأمور عيناً لك فى رؤية نفسك ؛ ففيه بَرَكةُ هذه الحاسةِ ونعمتُها

ولو نحن كنا مسلمين إسلامَ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه — لأدركْنا سرّ الكمال الانسانى ؛ وهو أن يَقَرَّ الانسانُ فى عالَم نفسه ويجعلَ باطنَه كباطن كل شىءٍ إلـهى ، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمرُّ به إلى جهة الكمال ، المرتفعُ به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فتَنظُرُ الانسانِ إلى نقص غيرِه هو أولُ نقْصه . والمؤمن كالنصن ؛ إن أثمر فتلك ثمارُ نفسه ، وإن عَطَلَ لم يشحذ ولم يحسد واستمرّ يعمل بقانونه

ولقد نشأتُ فى مَغرِسٍ كريم ، على صورة من الحياة تشبه صورةَ الثمرة الحلوة ، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومَرْتَبتها ماانتهيْن به من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومذاق ؛ فلما عَقَلْتُ وعرفتُ الناسَ بعدُ لجاريتهم وخالطتهم ، رأيتُنى منهم كالتفّاحة ملقاةً فى البصَل . . . وكانت التفاحةُ حمقاءَ فزادت حُمقاً ، وكانت حديدة فزادت حِدّة ، وظنَّت أن الحكمة قد مَسَختْ فى الدنيا وبدَّلتْ إذ خلقت البصلةَ بعد أن خلقت التفاحة ؛ وما علمَتِ الخرقاءُ أن الكمال فى هذه الحياة مجموعُ نقائص ، وأن للجمال وجهين : أحدهما الذى اسمه القبح ؛ لايعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لوأدركتْ مايريد الناسُ من معناها ومعنى التفاحة لَسَمَّتْ نفسَها هى التفاحةَ ، وقالت عن هذه إنها هى البصلة !

ولما رأت تفّاحتى أنها عاجزة أن تجعل الشجر كلّه فى مثل مرتبتها ومغرسها — قالت : إن الأمر أكبر من طبيعتى ، ومادام سرُّ الكون مُغلَقاً فلا تعريف له إلا أنه سِرٌّ مغلَق ، ولْيبقَ كل شىء فى طبيعة نفسه ، فعلى هذا يصلُح كلُّ شىء ولو فى نفسه وحدها

* * *

قال أبو محمد : ولكن بقيتْ وحشةُ الدنيا وجفوتُها ، إذ لم أكن اهتديتُ إلى عالمى ، ولا تأكّدتْ عقيدتى بنفسى ؛ فكان كل ما حولى مُنبَجِساً فى روحى بشرِّه ، وكانت الدنيا بهذا كالتطابقةِ فى رأبى على معنى واحد ، وزادنى أنى كنتُ رجلاً عَزَباً متعفّفاً ؛ وما أشبَه فراغَ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ؛ هذا هو العقلُ البليد ، وتلك هى الرجولة البليدة !

والمرأة تُضاعف معنى الحياة فى النفس ، فلا جَرَمَ كان الخلاءُ منها مضاعَفةً لمعنى الموت ؛ عَلِمَ هذا مَن عَلِم وجهلَه مَن جهِل ، فكنت أعيش من الكون فى فراغٍ ميّت ، وكنت أحسّ فى كل ما حولى وحشةً عقلية تُشعرُنى أن الدنيا غيرُ تامّة ؛ وكيف تتمُّ فى عينى دنيا أراها غير الدنيا التى فى قلبى ؟

وعرفتُ أن كل يوم يمضى على الرجل العَزَب المتعفف لا يمضى حتى يترك فيه مرضَ يوم آخر . ومن هذه الأيام المريضة المتهالكة ، تُمِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحيّ الذى نقض آيتها وافتات عليها ، وجعلَ نفسَه كالآله لا زوجة له ولا صاحبة !

وايمُ الله إن الشيطان لا يفرح بالرجل الزانى وبالمرأة الزانية ما يفرح بالرجل العَزَب وبالمرأة العزباء ؛ لأنه فى ذينك رذيلةٌ فى أسلوبها ، أما فى هذين فالشيطان رذيلة فى أسلوب فضيلة . . . ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضى ، وهنا يأتى الشيطانُ ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشت بقلب مُغلَق وعقل مفتوح ؛ وليتنى كنت جاهلاً مُغلَقاً عقلُه ، وكان قلبى مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !

ومضت أيامى يضربُ بعضُها فى بعض ، ويُعرِضُ بعضُها بعضاً حتى انتهت مُنتهاها ، وجاء اليوم المُدْنَفُ الهالكُ الذى سيموت . . .

أصبحتُ فقلت لنفسى : كم تعيشين ويحكِ فى أحكام جسدٍ مُختلٍ لا تَصْدُق أحكامُه ، وما أنتِ معه فى طبيعتك ولا هو معك فى طبيعته ؛ ففيمَ اجتماعُكما إلا على بلائى ونكدى ؟

لم تصطلحا قطُّ على واجب ولا لذّة ، ولا حلال ولا حرام ؛ فأنتما عدُوَّان لا همّ لكليهما إلا إفسادُ المَسرة التى تعرِضُ للآخر . وما أدرى بمن يسخر الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذى يُوسْوِس باللذات يتمنّى اقترافَها ، كالفاجر الذى يُواقعُها ويقتحمها !

ويحك يا نفس ! إنى رأيت هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدّم لى إلا رغيفاً وقالت : املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينيك وأذنيك ومشاعرك . آه آه ! مُمْكِنٌ واحدٌ معه أربعةٌ مستحيلات ! إن هذا لا يُلبثنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى تُمسكنى على الحياة : الأمل والعقل والايمان والصبر

لقد استوى فى هذه الكآبة صغير همّى وكبيرُه ، وما أرانى إلا قد أشرفتُ على الهلَكة التى لا باقية لها ، فإن وجهى المتكلّح المتقبّض يدُلُّ منى على أعصابٍ مُحتضَرة نهكتْها أمراضُها ووساوسها ، وإنما وجهُ الانسان فى قُطوبه أو تهلُّله هو وجهُه ووجه دنياه تَعبِسُ أو تبتسم

وتالله لقد عجزتُ عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضة الواهنة ؛ فإن حِبالةَ الصّيد ، صَيدِ الوحش ، لا تكون من خيط الابرة . . . ! وأرانى أصبحت كانسانٍ حجرىّ ليس فى طبيعته الالتواءُ الى يمين الحياة ويسارها ؛ ويُخيلُ الىّ من صلابتى أنى الأسد ، ولكنى أسدٌ من حجر ، لا تفرضُ قوّتُه الفرارَ منه على أحد !

* * *

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسى فى هذا الحوار كالميّتة ، لا تجيب ولا تعترض ولا تُنكر ؛ وكنتُ أظنّها تُراودنى على الحياة أو تردُّنى عن غَوايتى ؛ فلأنّى سكونُها جزعا ، وأيقنتُ أن الشيطان بينى وبينها ، وأنه أخذ عنافدها ، فأردتُ الصلاة فثقُلَتْ عنها ورأيتنى لا أصلُح لها ، بل خُيِّل الىّ أنى إذا قمتُ الى الصلاة فانما قمتُ لأتهزَّأ بالصلاة !

وجعل الشيطانُ يأخذنى عن عقلى ويردُّنى اليه ، ثم يأخذنى ويردُّنى ، حتى توهّمتُ أنى جُنِنْتُ ، وكأنما كان يريد اللعين بقيّةَ إيمانى يجاذبنى فيها وأجاذبه ، فلم ألبث أن مسّنى خبالٌ وألقيتُ هذه البقيّةَ فى يديه !

ثم أفقتُ إفاقةً سريعة ، فرأيت (المصحف) يرقبنى من قريبٍ ، فعُذْتُ به وعطفتُ عليه وقلتُ له : امنع الضربةَ عن قلبى . بَيْدَ أنى أحسستُ أنه خصمى فى موقفى لا ظهيرى ؛ كأنى جملته مصحفاً عند زنديق ، فكان كل إيمانى الذى بقى لى فى تلك اللحظة أنى ضعفتُ عن حمل المصحف كما ثقلت عن الصلاة ، فبقى الطاهر طاهراً والنجسُ نجساً

ولم تكن نفسى فىّ ولا كنتُ فيها ؛ فرأيتُ الدنيا على وجه لا أدرى ما هو ، غير أنه هو ما يُمكنُ أن يكون معقولاً من تخاليط مجنونٍ ترَكه عقلُه من ساعة : بقايا شعورٍ ضعيف ، وبقايا فهمٍ مريض ، تَتصاغرُ فيهما الدنيا وتَتحاقرُ بهما العقل

فلما انتهيتُ إلى هذا لم أعقل ما عملت ، وكانت الموسى قد أصابت من يدى عِرْقاً ناشزاً مُنتبِراً ، ففار الدّم وانفجر منه مثلُ الينبوع ضُرِب عنه الصخرُ فانشقّ فانبثق

وتحققتُ حينئذ أنه الموتُ ، فنظرتُ فرأيت . . .

* * *

قال المسيّبُ راوى القصة : وتجهّم وجهُ الرجل فأطرق وسكت ، وكان على وجهه شفقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتةً عندما قال : « فنظرتُ فرأيت »

وارتجّ المسجد بصيحةٍ واحدة : فرأيت ماذا ، رأيتَ ماذا ؟

وبعثتِ الصيحةُ أبا محمد فقال : رأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرقَتْ من المصحف تنظر إلىّ كالعاتبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطالع ، لو تمثّلتْ آياتُ الجنةِ كلُّها وجهاً لكانته فى نضرته وبشاشته . وغمغمتْ بكلمات لم أسمعْ منها شيئاً ، ولكن نظرَها إلىّ كان يؤدّى لى معانيها وكأنها تقول : « أكذلك المؤمن ... ؟ »

ثم غابت وتخلّت عنى وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى ، كأنها نقائضُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطِها ، لو تمثّلتْ آياتُ الجحيم كلُّها وجهاً لكانته فى نُكرهِ وهَوْله ، وخُيِّل إلىّ أن الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَر المصحف ، ففكّرت ، فوقعَ لى مما قام فى نفسى من اللّمنة أنها : « تبّتْ يَدَا أبى لَهَبٍ وتبّ . . . »

وطمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيّمتِ الدنيا ، فأيقنتُ أن آنامى قد أقبلتْ علىّ ظُلْمةً بعد ظُلْمة ، والدمَ شىءٌ أحمر ، فنظرتُ فاذا الدمُ يتخايلُ فى عينىّ كأنه شُعَلٌ تتلوّى ، فجزعتُ أشدَّ الجزع ، وحسبتها طرائقَ ممتدةً لرُوحى تذهب بها إلى الجحيم

وماتت كلُّ خواطرى بعد ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيتْ حيّةً تأكل فى قلبى أكلَ النار ، وهى : « كيف تجرأتُ فوضعتُ بينى وبين الله حُمْقى ؟ »

* * *

ويقولون : إن أختى قد رأتنى أتشحّط فى دمى فصاحت ، وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأىٍ ما استطاع حبسَ الدم ، واحتال حيلته حتى أسَفّ الجرحَ دواءً وضمّده ؛ فجعلتُ أثوب نفَساً بعد نفَس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . .

ثم طافت الحياةُ على عينىّ ففتحتهما ، فاذا الأشياء تبدو لى وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ ، كأنها تتخلّق جديدةً تحت بصرى ، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

وتماثلتُ شيئاً بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسى قد رجعتْ إلىّ ساخرةً منى تقول : كيف رأيتَ عَمَلَ العقلِ أيها العاقل ؟

وبدأتِ الحياة تتجدّد ، فأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أجدّد إيمانى بالله . ولم أكد أفعل حتى أحسستُ كأن قوّةَ الوجود كلّها مستقرّةٌ فى روحى ، وخُيّل إلىّ أنى أنا وحدى القوىُّ على هذه الأرض قوّةَ جبالها وصخورها ، على حين كان جسمى ممدّداً كالميّت لا يتماسك من الضعف !

فأيقنتُ حينئذٍ مالم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قطّ فى الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فكر : أيقنتُ أنها معجزةُ الايمان الجديد الغضّ ، المتّصِل بالله لتوّه كايمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة ، أو تعترضه خاطرة ، أو تكدّره ذرّةٌ واحدة من فكرٍ أرضىٍّ دَنِس

* * *

قال المسيب : ثم جلس المتحدّث ، وكان الناس فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلِ إيمانه ؛ فسكت الامام ولم يتكلم ، ليدعَ كل نفسٍ تكلّمُ صاحبها

(للمجلس بقية) (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

ظهر حديثاً كتاب :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة مجلة الرسالة ٣٢ شارع البدولى — القاهرة
وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً خلاف أجرة البريد